تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى ا عليه وسلّم باسم الرسالة وآمرا له بإبلاغ جميع ما أرسله ا به وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبي عن مسروق عن عائشة Bها قالت : من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزل ا عليه فقد كذب ا يقول { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } الآية هكذا رواه هاهنا مختصرا وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولا وكذا رواه مسلم في كتابي الإيمان والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما من طرق عن عامر الشعبي عن مسروق بن الأجدع عنها Bها وفي الصحيحين عنها أيضا أنها قالت : لو كان محمدا صلى ا عليه وسلّم كاتما شيئا من القرآن لكتم هذه الآية { وتخفي في نفسك ما ا مبديه وتخشى الناس وا أحق أن تخشاه } .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي : حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كنا عند ابن عباس فجاء رجل فقال له : إن ناسا يأتونا فيخبروننا أن عندكم شيئا لم يبده رسول ا صلى ا عليه وسلّم للناس فقال ابن عباس : ألم تعلم أن ا تعالى قال : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } وا ما ورثنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم سوداء في بيضاء وهذا إسناد جيد وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبد ا السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب Bه : هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه ا رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وقال البخاري : قال الزهري : من ا الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد ا أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال في خطبته يومئذ [أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟] قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول [اللهم هل بلغت] ؟ قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا فضيل يعني ابن غزوان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم في حجة الوداع [يا أيها الناس] أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام قال أي بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام قال أي شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام قال : [فإن أموالكم ودماءكم

وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا] ثم أعادها مرارا ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال [اللهم هل بلغت ؟] مرارا قال : يقول ابن عباس : وا لوصية إلى ربه D ثم قال [ألا فليبلغ الشاهد الغائب : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض] وقد روى البخاري عن علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن فضيل بن غزوان به نحوه .

وقوله تعالى : { وإن لم تفعل فما بلغت رسالته } يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس { وإن لم تفعل فما بلغت رسالته } يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد قال : لما نزلت { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } قال : يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي ؟ فنزلت { وإن لم تفعل فما بلغت رسالته } ورواه ابن جرير من طريق سفيان وهو الثوري به .

وقوله تعالى : { وا يعصمك من الناس } أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك وقد كان النبي صلى ا عليه وسلّم قبل نزول هذه الآية يحرس كما قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا يحيى قال : سمعت عبد ا بن عامر بن ربيعة يحدث أن عائشة Bها كانت تحدث أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت ما شأنك يا رسول ا ؟ قال [ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة] قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال [من هذا ؟] فقال : أنا سعد بن مالك فقال : [ما جاء بك ؟] قال : جئت لأحرسك يا رسول ا قالت : فسمعت غطيط رسول ا صلى ا عليه وسلّم في نومه أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري به وفي لفظ : سهر رسول ا صلى ا عليه وسلّم ذات ليلة مقدمه المدينة يعني على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة Bها وكان ذلك في سنة ثنتين منها .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري نزيل مصر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد يعني أبا قدامة عن الجريري عن عبد ا بن شقيق عن عائشة قالت : كان النبي صلى ا عليه وسلّم يحرس حتى نزلت هذه الآية { وا يعصمك من الناس } قالت : فأخرج النبي صلى ا عليه وسلّم رأسه من القبة وقال [يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني ا D] وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد وعن نصر بن علي الجهضمي كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به ثم قال : وهذا حديث غريب وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه من طريق مسلم بن إبراهيم به قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وكذا رواه سعيد بن منصور عن الحارث بن عبيد أبي قدامة عن الجريري عن عبد ا بن شقيق عن عائشة به ثم قال الترمذي : وقد روى بعضهم هذا عن الجريري عن ابن شقيق قال : كان النبي صلى ا عليه وسلّم يحرس حتى

نزلت هذه الآية ولم يذكر عائشة قلت : هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علية وابن مردويه من طريق وهيب كلاهما عن الجريري عن عبد ا بن شقيق مرسلا وقد روى هذا مرسلا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي رواهما ابن جرير والربيع بن أنس رواه ابن مردويه ثم قال : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشدين المصري حدثنا خالد بن عبد السلام الصدفي حدثنا الفضل بن المختار عن عبد ا بن موهب عن عصمة بن مالك الخظمي قال : كنا نحرس رسول ا صلى ا عليه وسلّم بالليل حتى نزلت { وا يعصمك من الناس } فترك الحرس حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي حدثنا كردوس بن محمد الواسطي حدثنا يعلى بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : كان العباس عم رسول ا A فيمن يحرسه فلما نزلت هذه الآية { وا يعصمك من الناس } ترك رسول ا A الحرس حدثنا علي بن أبي حامد المديني حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري حدثنا أبي حدثنا محمد بن معاوية بن عمار حدثنا أبي قال : سمعت أبا الزبير المكي يحدث عن جابر بن عبد ا قال : كان رسول ا A إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت { وا يعصمك من الناس } فذهب ليبعث معه فقال [يا عم إن ا قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث] وهذا حديث غريب وفيه نكارة فإن هذه الآية مدنية وهذا الحديث يقتضي أنها مكية ثم قال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحماني عن النضر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول ا A يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته وا يعصمك من الناس } قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : [إن ا قد عصمني من الجن والإنس] ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني عن أبي كريب به .

وهذا أيضا حديث غريب والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها وا أعلم ومن عصمة ا لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا بما يخلقه ا من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيسا مطاعا كبيرا في قريش وخلق ا في قلبه محبة طبيعية لرسول ا A لا شرعية ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا ثم قيض ا له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده ا ورد كيده عليه كما كاده اليهود بالسحر فحماه ا منهم وأنزل

عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه ا به وحماه منه ولهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها فمن ذلك ماذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة : .

فقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : كان رسول ا A إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك مني ؟ فقال [ا D] فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل ا D : { وا يعصمك من الناس } وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثنا موسى بن عبيدة حدثني زيد بن أسلم عن جابر بن عبد ا الأنصاري قال : لما غزا رسول ا A بني أنمار نزل ذات الرقاع بأعلى نخل فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال غورث بن الحارث من بني النجار : لأقتلن محمدا فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له : أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به قال : فأتاه فقال : يا محمد أعطني سيفك أشيمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول ا A [حال ا بينك وبين ما تريد] فأنزل ا D : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته وا يعصمك من الناس } وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقصة غورث بن الحارث مشهورة في الصحيح .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أبو عمرو بن أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا آدم حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول ا A في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد من يمنعك مني ؟ فقال رسول ا A [ا يمنعني منك ضع السيف] فوضعه فأنزل ا D : { وا يعصمك من الناس } وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عبد ا بن محمد عن إسحاق بن إبراهيم عن المؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا إسرائيل يعني الجشمي سمعت جعدة هو ابن خالد بن الصمة الجشمي Bه قال : سمعت النبي A ورأى رجلا سمينا فجعل النبي A يومىء إلى بطنه بيده ويقول [لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك] قال : وأتي النبي A برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك فقال له النبي A : [لم ترع ولو أردت ذلك لم يسلطك ا علي] وقوله { إن ا لا يهدي القوم الكافرين } أي بلغ أنت وا هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى : { ليس عليك هداهم ولكن ا يهدي من يشاء } وقال { فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب }